نظرة

في كتاب نزهة الانام في محاسن الشام

كنت وعدت قراء هذه المجلة الافاضل اثناء كلامي عن هذا الكتاب (جزء ٧ : صفحة ٣٢٧) بإفراد مقالة خاصة تبحث عن مشاهدات مؤلفه وما وصفهُ من معالم دمشق وابنيتها ومعاهد لهوها وثمارها وانهارها في ذلك العصر . اي منذ نحو خمسة قرون ليتسنى لابناء دمشق اليوم المقابلة بين الحالتين والحكم فيما تفعله المؤثرات الكونية من التطورات حتى في عالمي الجماد والنبات . ولقد صدق من قال :

واذا نظرت الى البلاد رأيتها تشقى كما تشقى العباد وتسعدُ

ووفاءً بالوعد اثبت الآن ما يأتي ملخصاً عن ذلك الكتاب ومعقباً اياه بملحوظاتي الخاصة فأقول :

استهلَّ المؤلف كتابه بمقدمة قال فيها بعد البسملة « احمده حمداً كثيراً حيث اصبح اللوز بامرهِ على بعضهنَّ عاقد . وبعضهنَّ اثقل الحمل من الجوز قامت بارادته بعد قيامها لتقاعد . وبعضهنَّ من باسقات النخيل (١) من طرحت بقدرته ثمرة الفؤاد . واجرى لطفهُ في بعضهنَّ حيث ارتخت نهودهنَّ كالرمان هائمة بحضنهنَّ في كل واد .

واشكره شكراً مزيداً منذ عطَفَ الطلُّ على طفل امهات السفرجل فيرضعهُ وهو يشرب . واسبل سترهُ على من رفعت كفوفها كورق الكرمة لما امتدَّت وعليها العنب زبَّب . ومنهنَّ من عمّها بالحياء فاحمرَّ خدّها كالتفاح . ومنهنَّ من نكست

---

(١) لا عهد لنا الآن بالنخيل — وموطنهُ الاقاليم الحارّة كما نعلم — الا شجيرات معدودات مغروسة شذوذاً في بعض البساتين او البيوت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

رأسها من الهيبة كالكثرى فاكسبها عرفا طوت شقق نشره ايدي الرياح(١)»

ثم اتى على طائفة من الاحاديث الواردة بذكر محامد الشام ومنها ما نقله عن رواية ابي هريرة وهو « اربع مدائن من مدائن الجنة واربع مدائن من مدائن النار . فاما مدائن الجنة فمكة والمدينة وبيت المقدس والشام . واما مدائن النار فالقسطنطينية وطبرية وانطاكية المحترقة وصنعاء »

ثم قال عن سبب تسميتها بالشام : ان اهل اليمن لما تشاءموا لها من يمنهم سميت شاماً . وقال ايضاً : ان قوماً من بني كنعان نزلوها فتشاءموا لها فسميت شاماً وفي كلا القولين نظر كما لا يخفى

ثم تكلم عن بناء الجامع الاموي على عهد الوليد بن عبد الملك الاموي كلاماً طويلاً قال في خلاله : انه انفق على الكوة التي في قبلة المسجد سبعين الف دينار (ص ٤٣) وقال ان اسم بابه القبلي (باب الزيادة (٢)) والباب الشمالي (باب الناطفيين (٣) والباب الغربي (باب البريد) والباب الشرقي (باب جيرون (٤))

ثم ذكر قلعة دمشق فقال : فيها ضريح ابي الدرداء وجامع ذو خطبة وحمام وطاحون وبعض حوانيت لبيع البضائع ودور وحواصل وطارمة ليس على وجه الارض أحسن منها ثم قال ان تيمور حاصر هذه القلعة وعجز عنها (ص ٦٠)

ثم عدد الكثير من اسواقها كدار البطيخ . وقال : وفيها العين المعروفة بالمجمع لبرودة مائها وعذوبته وخفته ويباع فيها جميع انواع الفاكهة (ولعله سوق خان الباشا اليوم) ثم ذكر سوق القماش المذروع (لعله سوق الذراع اليوم الذي دعي بعد حريقه وبنائه في اواخر القرن الماضي بسوق مدحت) وسوق القماش المخيط وقال انه تحت القلعة (ولعله السوق الجديد المعروف بسوق الحميدية) وسوق للفراء والعبي والسفطيين (العلبية اليوم) والنقليين (البزورية اليوم) وسوق النحاس والسكاكين والقرب والسروج

---

(١) هذا الضرب من السجع لا يدل على علو كعب المؤلف في عالم البلاغة والانشاء (٢) هذا الاسم نجهله اليوم . وهو باب المحراب الذي يواجه سوق السلاح ويقال له باب القوافين (٣) هو اليوم باب العمارة (٤) هو اليوم باب النوفرة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والقشاشين والمحايرين والنجارين والخراطين ودار الخضر والمناخليين والزجاجين (ص ٦٢و٦٣) ومواقع بعض هذه الاسواق مجهولة عندنا اليوم

ثم قال : اما ساحة تحت القلعة فانك لا تستطيع ان ترى ارضها لكثرة ما بها من المتعيشين والوظائفية والفالاتية والمضحكين واصحاب الملاعيب والحكواتية والمسامرين وكل ما يتلذذ به السمع والنظر وتشتهيه النفوس ويسمرون كذلك الى ان يطلع المؤذن على منارة العروس بالجامع الاموي ويعلق لهم قنديل الاشارة (ص ٦٣ و ٦٤)

ثم وصف المدرسة المؤيدية وجامع (يلبغا) فقال عن هذا انه احسن الجوامع فيه بركة ماء مربعة فيها فسقية مستديرة ذات نوفرة يصعد منها الماء قامةً ومن فوقها مكعَّب عليه عريشة عنب ملون يصل الماء الى قطوفها الدانية وبجانبها حوضان فيهما انواع الفاكهة واجناس الرياحين ولهُ شبابيك تطلُّ على جهاته الثلاث الاولى تحت القلعة من جهة الشرق . والغربية من جهة بين النهرين والقبلية على نهر بردى وما هنالك من الاشجار والازهار وهناك شجرة حور يحتاط بها اربعة رجال فلا ينظر الواحد منهم لمن يقابلهُ لعظم ساقها . وللجامع ثلاثة ابواب شرقي وهو في صدر تحت القلعة ويسمى باب الخلق وشمالي يخرج منهُ الميضا ويسمى باب الفرج وغربي ينحدر منه في درج الى اول الوادي ويسمى باب المنزه

ثم وصف — بين النهرين — فقال : هو مبدأ الوادي يشتمل على فرجة سماوية فيها دور وقصور وسويقة بها حانوت وطباخ وفقاعي وحراضر وفاكهاني وشواء وسكرداني ونقلي وفاعة لبن وحمام وقنطرة يتوصل منها الى جزيرة لطيفة من رأسها ينقسم نهر بردى فيصير نهرين والمقسوم منهُ نهر الصالح المعتقد الشيخ ارسلان وهناك مقسفان(١) للبطالين فيما بين المقسمين وقبالتهما بردى فيصير نهرين تقام بها السبت والثلثاء ما يصير الحاضر غائباً . ويتوصل الى زقاق الفرابين ويشتمل على قاعات واطباق وغرف ورواق والجميع يطلُّ على بين النهرين ولكل مكانٍ من ذلك ناعورة

(١) المقصف (عامية) المتنزه المتخذ للهو والزهو والاكل والشرب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يلتذ صاحبها (١) بأنينها (ص ٦٦)

ثم ذكر — شرفيها الاعلى والادنى — فقال : ان كلاً منهما يطلُّ على (الشقرآء) و (الميدان) و (القصر الابلق) و (المرجة) ذات العيون والغدران . ثم قال : ان هنالك مدارس لطلب العلم ومساجد من جملتها جامع (تنكز) في الشرف الادنى وان لكل واحدٍ منها من الاوقاف ما يكفيه استولت عليهـا ايدي المتشبهين بالفقهآء فاظهروا فيها انواع المفاسد . ووصف عقيب ذلك جامع تنكز فقال ما مؤداهُ : انهُ بديع الهندسة والبنآء فيه عشرون شباكاً على خطّ الاستواء تشرف على الانهار ومرجة الميدان . وفي وسطه يمرُّ نهر بانياس يتوضأ فيه الناس وفيـه ناعورتان تملآن وتفرغان الى حوضين يجمعان انواع الاشجار والرياحين فهو للمتنزه مقصد وللمصلي معبد ثم اتى ببيتين للنواجي ثورية بالشرف الاعلى وهما :

ألا ان وادي الشام اصبح آيةً محاسنهُ ما بين اهل النهى تتلى
وان شرفت بالنيل مصر فلم يزل دمشق لها بالفوطة الشرف الاعلى

وبعد ان روى ابياتاً في وصف محاسن الشقرآء والميدان والخضرآء والمرجة قال ما محصّله : انهُ قرأ كتاب وقف تربـة الملك الظاهر (برقوق) الكائنة بالصحرآء خارج باب النصر من القاهرة فوجد من جملته طاحونة الشقراء بمرجة دمشق ظاهر قصر الملك ابي الفتوحات (بيبرس) بالقرب من زاوية الاعجام (٢) ويليها قصبة سوق عدة

(١) انظر الى قوله فقاعي وحواضري وسكرداني ونُقلي تجد الفرق بين لغة العامة واصطلاحاتها في مسمياتها في ذلك العصر وبين لغتها فيها الآن . وقد ثبت لنا هنا ان عادة البروز الى المتنزهات في يومي السبت والثلثآء الجارية الآن انما هي بعيدة العهد متوغلة في القدم عند اهالي دمشق . ومن الغريب انهُ لم يبقَ في دمشق ومتنزهاتها نواعير الآن بل هي منحصرة في حواكير الآس بالصالحية . ومما قالهُ صاحب المقالة في نواعير حماة :

شاخت حماة فواهفي على بلدٍ اخنت عليه وخانتهُ التقاديرُ
حتى غدا النهر يبكي في جوانبه حزناً عليها وترثيه النواعيرُ

(٢) يذكر القرآء انهُ كان غربي القنوات بستان كان يسمى بستان الاعجام اصبح اليوم ابنيةً وساحات وشوارع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

حوانيتها احدى وعشرون حانوتاً تعلوها الطباق المطلة على المرجة وفي منتهاها المسجد المشرف على نهر بردى . ثم قال : وهذه الطاحون هدمها برهان الدين النابلسي في اوائل دولة السلطان الملك الاشرف (قايتباي)

ثم قال : وبعضهم يشبه المرجة بصدر الباز لان الوادي ينضمُّ من رأسها ويعلوها جبلان وشبَّه هذين الشرفين بالاجنحة ومن كلامه هذا اتضح انهُ يريد بالشرفين اعلى الجبلين المشرفين على موقع ... صدر الباز — الآن كالجناحين (ص ٧٠ — ٧٤)

ثم ذكر — الخلخال — و — المنيبع — و — الجبهة — فقال عن الخلخال : ان فيه سويقة (١) وحوانيت وفرناً وحماماً وهي مسكن الاتراك . وكذلك المنيبع وفيه مدرسة الخاتونية وهو من اعاجيب الدهر يمرُّ بصحنه نهر بانياس وقنوات ولها شبابيك تطل على المرجة ذات الواحٍ من الرخام . وهنالك خلوات للطلبة وبجوارها دار الامير (ابن منجك) يسكنها القاضي بهاء الدين بن صحني الشافعي . ثم قال عن الجبهة : انها متنزه مربَّع مقياسهُ فدانان يعلوه نهر قنوات وبانياس عليه سقايف تظلله بين شجر الصفصاف والجوز والحور وكل مفرش حصير تحيط به جداول الماء مع البرك والبحرات ذات النوافر وهي جانب نهر بردى وفيها حوانيت للشرايحية والجزارين والطباخين ومقاصفية واقفون في خدمة الناس وعندهم اللحف والانطاع والعبي لمن يبيت هناك (ص ٧٦ و ٧٧)

ثم ذكر متنزهاً سماه — قطية — وقال هو مقصف على نهر بردى وعليه النواعير متشعبة ارضه بجداول الماء والبرك والبحرات وفيه قصبة ذات حوانيت يعلوها اربعة اطباق ومربط للدواب وعند المقاصفي العبي واللحف والانطاع حتى الاطباق والملاعق لمن يأكل وهذا مما لا يوجد في بلد آخر (ص ٧٩)

ثم وصف — البهنسية — بقوله : انها متنزه جامع بين الاشجار ذات الفواكه والازهار مع عيون الماء وتظهر منهُ الى (مرجة جسر ابن شواس) وهي اعظم الامكنة وانضرها وفيها سويقة وحمام يقال لهُ حمام الزمرد وجامع يخطب بهِ وهي

---

(١) تصغير سوق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مسكن الرؤساء والاعيان وفيها دار قاضي القضاة نجم الدين يحيى بن حجي وفيها قُتل ومنها تدخل الى ارض (الربوة) واعجب من هذا ان السالك الى الربوة من حين يخرج من جامع (يلبغا) يمشي بين اشجار واثمار ومياه وظل ظليل لا يمكن ان يرى الشمس الا ان يقصد رؤيتها (٨٠و٨١)

ثم وصف الربوة فقال : انها مغارة لطيفة بسفح الجبل الغربي سميت ربوةً لانها تشرف على غوطة دمشق ومياهها . وهناك شبه محراب يقال انهُ مهد عيسى عليه السلام — يزار وينذر لهُ — وفيها جامع ومدارس وعدة مساجد وقاعات واطباق ومرابط للدواب وعين ماء يقال لها « الملثم » وسويقتان يفصل بينهما نهر بردى حيث توجد صيادو السمك والقلاّيون . الى ان قال : وقد اشتريت الفاكهة هناك من المشمش والتفاح الرطل بربع درهم . ثم قال وهناك حمام ليس على وجه الارض نظيره لكثرة مائهِ ونظافتهِ . وقد جدّد نور الدين الشهيد هنالك المسجد الديلي واوقف لهُ اوقافاً على قرآء ووعاظ ومؤذن وفرّاش وبوّاب (١) وفي ذلك يقول تاج الدين الكندي :

ان (نور الدين) لما ان رأى في البساتين قصور الاغنياء
عمّر (الربوة) قصراً شاهقاً نزهة مطلقةً للفقرآء

(ص ٨٣ و٨٤) ثم قال ان هذه القاعة التي بناها نور الدين هي على شعب جبل منتخة بالواح من خشب سقفها (نهر يزيد) واساسها من تحتها (نهر ثورا) وقبالها في الجبل الغربي ضريح (العاشق والمعشوق) وعليها صومعتان مبيضتان وبينهما سبعة مقاصف في كل منهن الثريات والمصابيح والغطاء والوطاء ما لا يحتاط به الوصف حتى ان بعض الناس يقصدها للتنزه يوماً فيقيم فيها شهراً . وجبلاها متقابلان متلاقيان عليها بذيل الجبل الغربي (دف الزعفران) ورأس الجبل الشرقي مثل الجنك . قال جمال الدين ابن نباتة :

---

(١) ابن هذا اليوم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بالجنك من مغنى دمشق حمائمٌ في دفّ اشجار تشوق بلطفها (١)
فاذا اشار لها الشجيُّ بكفه غنّت عليه بجنكها وبدفها

وقال صلاح الدين الصفدي :

انهض الى الربوة مستمتعاً تجد من اللذات ما يكفي
فالطير قد غنّى على عوده في الروض بين (الجنك) و(الدف)

(ص ٨٦ و٨٧) ثم قال : ومن محاسن الشام (المقسم) الذي ينقسم منه بردى الى سبعة انهار . وقال : ان اصله من ينابيع (عيون التوت) وهو يمرُّ على قرية (الزبداني) كالبحر الى ان يلتقي على قرية (الفيجة) الفيجآء بمياه ينبوعها (ص ٩١) ويستنتج من قوله هذا ان الفيجآء في الاصل لقب قرية الفيجة ثم لقبت به دمشق توسعاً للمجاورة والمطابقة وحسن التناسب

ثم قسم الانهار السبعة فقال منها (يزيد) و(ثورا) بذيل الجبل الشرقي وبشق (بردى) بطن الوادي و(بانياس) و(قنوات) و(القنابة) و(الداراني) بذيل الجبل الغربي . وآخر ما يفضل من هذه الانهار هو نهر بردى وينزل في المقسم على نحو عشرين درجة كالشادروان فرؤيته تذهب الهم وتزيل الحزن (ص ٩٢)

ثم ذكر (حواكير الآس) فقال هي كالحدائق في سفح (جبل قاسيون) فان الفاصل بينه وبين (جبل الربوة) عقبة قرية (دمّر) التي تحد (قبة سيار) ويقال ان سياراً هذا وبشاراً كانا يتعبدان على رأس هذين الجبلين اللذين للربوة وكانا من اصحاب الخطوة فاذا اراد احدهما الاجتماع بالآخر يضع قدمهُ على جانب الجبل والآخر عند صاحبه فكأنهما كانا يمشيان في الهواء فبنوا لهما هاتين القبتين على هذين الجبلين (ص ١٠٢ و ١٠٣) وهذا القول من بقايا ما خلفته تلك القرون المظلمة من آثار الجهل والجمود

ثم ذكر محاسن الورد وقال : انه في دمشق ستة انواع وهي الاحمر والابيض والأسود والاصفر والقحابيُّ الذي باطنه احمر وظاهره اصفر والجوري والاصفر

---

(١) الجنك آلة طرب معروفة (فارسية) وكذلك الدف آلة موسيقية ينقر عليها بالاصابع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المطبق ثم قال : ان اجودها الجوريُّ :

كأنه وجنة المحبوب نقّطها كف المحب بدينار من الذهب

(ص ١٠٤ — ١١٨) ثم قال عن قرية الزبداني : انها «قلعة الورد يستخرجون بها ماء ورد للقاهرة المحروسة ومكة المشرفة وغيرهما من البلاد وكذلك فاكهتها هي المنقولة الى القاهرة المحروسة وغيرها» اما الفاكهة فهي تنقل الآن من الزبداني الى مصر بعد ان اوجد البخار سككاً قصرت المسافات وسهلت الوسق براً وبحراً ولا ادري كيف كانت تنقل قبل ذلك وتصان من الفساد مع بعد الشقة وتمادي المسافات اما استخراج ماء الورد فيها فلا عهد لنا بمعرفته الآن ولم نسمع عنه من قبل

ثم ذكر من محاسن الشام (النرجس) وقال : هو ثلاثة انواع (اليعفوري) (والبري) (والمضعف) ويقال له (المحدق) وهو يقول : اذا شُقّ بَصَلُه وغُرس صار مضعفاً (ص ١٢١ و١٢٢)

ثم ذكر (البنفسج) وقال : هو عراقي وقلبجي وابيض (ص ١٣٣) اما نحن فلا نعرف منه سوى النوع المعروف باللون المختص به الذي يشبه الزبرجد القاتم . ثم ذكر الياسمين وقال : منه ابيض ومنه اصفر مستشهداً على وجود الاصفر ببيتين للعلاء بن ايبك الدمشقي :

كأنما الياسمين حين بدا اصفرهُ في جوانب الكثبِ
عساكر الروم نازلت بلداً وكل صلبانها من الذهبِ

(ص ١٣٦ و١٣٧) ولم افقه لهذا التشبيه معنى . ثم ذكر المنثور وقال : هو اصفر وابيض وبنفسجي وازرق (ص ١٣٩) ثم ذكر (السوسن) وقال : هو ابيض واصفر وازرق (ص ١٤٢) ثم ذكر (الزنبق) وقال : هو خاص بدمشق (ص ١٤٦) — وليس لدينا ما يؤيد ذلك . ثم (البهار) وقال : هو الاقحوان الاصفر . وعقب على ذلك بقوله : منهُ نوع صغير الشكل جداً يسمّى في الشام (عين الجمل) ويلحق به البابونج وافضلهُ ما كان اصفر طريئاً طيب الرائحة . وعندي ان البابونج فصيلة مستقلة عن الاقحوان

قال ايضاً : ومن اصناف الاقحوان الآذريون وهو ما كان نواره اصفر او احمر (ص ١٥٠ — ١٥٢) ثم الآس وقال : يلحق به الريحان وهو جنس تحته انواع نرنجي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وحماحي وتتريـــي وطراطري وحمام واتى على ابيات يستشهد بها على كل من هـذه الانواع . ثم قال : ويلحق به النمام «ص ١٥٢ — ١٥٩» ثم ذكر شقائق النعمان وقال : هو صنفان برّي وبستاني وان من البستاني ما زهره احمر ومنه ما زهره الى البياض وقال عن البري : انه اعظم من البستاني وزهره احمر قانٍ وفيه ايضاً الاصفر والاحمر (ص ١٦٠ - ١٦١) . ثم تكلم عن النيلوفر) وقال : هو اصفر وازرق وبنفسجي ويسمى (حب العروس) (ص ١٧١ — ١٧٨) ثم ذكر (البان ثم زفت وانظر) وقال : هو من خواص دمشق وسماه بالآس البري ثم (تمر الحناء) وقال : انه يطلع خارج البلد في الغور وفي الاراضي الحارة من قرى الشام (ص ١٨٠ — ١٨١)

ثم انتقل الى الاشجار فذكر (الحيلاني) وقال : ان شجره يشبه الصفصاف والحق به (الزنزلخت) ثم ذكر (السرو) وقال ان جميع هذه المحاسن بالحوا كبر غير ان الماء لا يصل اليها الا بجهد كثير لعلوها عن نهر يزيد فاصطنعوا لها الدولاب ولا يدور الا بعزم بهيم شديد (ص ١٨٢ — ١٨٥) ويريد بالدولاب هنا الناعورة كما لا يخفى

(لها تتمة)

سليم عنحوري
العضو في المجمع العلمي العربي